﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾

(الكهف ٤٩)

كتاب الأعمال

سكينة عبد المالك الصميدعي

إن صراط ربي مستقيماً واضحاً رسم الله للعبد فيه معالم الوصول.. وحذر سبحانه من مخالفة أمره بارتياد غيره وموالاة الشيطان .. لأن الإنسان لم يخلق عبثاً ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ (المؤمنون ١١٥)، إنما وراءه حساب وكتاب .

هذه الآية الكريمة تصور حال الذين ظلموا أنفسهم بسلوك طريق الباطل وحاربوا سالكي طريق الحق ..

يقول سيد قطب في تفسيره لهذه الآية: هذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم، وهم يتملونه ويراجعونه، فإذا هو شامل دقيق. وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدور بهذا الكتاب الذي لا يترك شاردة ولا واردة، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾ (الكهف ٤٩) وهي قولة المحسور المغيظ، الخائف، المتوقع لأسوأ العواقب، وقد ضُبط مكشوفاً لا يملك تفلتاً ولا هرباً، ولا مغالطة ولا مداورة هؤلاء المجرمون الذين وقفوا ذلك الموقف كانوا يعرفون أن الشيطان عدو لهم، ولكنهم تولوه فقادهم إلى ذلك الموقف العصيب .

﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ (وضع) جاء فيه الماضي موضع المستقبل لتحقق وقوعه – كما أورده صاحب تفسير البحر المحيط – وأضاف إلى المشهد الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه (يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفا يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ... الحديث).

وذكر الإمام الطاهرين عاشور أن جملة ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ معطوفة على جملة{وَعُرِضُواعَلَى رَبِّكَ} فهي في موضع الحال، أي وقد وضع الكتاب . والكتاب مراد به الجنس، أي وضعت كتب أعمال البشر، لان لكل واحد كتاباً، كما دلت عليه آيات أخرى منها قوله تعالى ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ والخطاب بقوله ﴿فَتَرَى﴾ لغير مُعينّ وليس للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه صلى الله عليه وسلم يومئذ في مقامات عالية عن ذلك الموضع . - انتهى كلام ابن عاشور- ..

ويصور الإمام القرطبي حال الناس يوم العرض على الله وتوزيع الكتب. يقول: ثم يُدعى المؤمن فيُعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فإذا حسناته باديات للناس، وهو يقرأ سيئاته كي لا يقول كانت لي سيئات فلم تذكر حتى إذا استنقص ما في الكتاب وجد في آخره أنه مغفور له وأنه من أهل الجنة عند ذلك يُقبلْ على أصحابه ثم يقول: ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الحاقة ٢٠). ثم يُدعى بالكافر فيُعطى كتابه بشماله ثم يُلفْ فيُجعَلْ من وراء ظهره، ويُلوى عنقه، فذلك قوله ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ ﴾ (الانشقاق ١٠) فينظر في كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر في حسناته لكيلا يقول أفأ ثاب على الحسنات . وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول: يا ويلتاه!! ضُجّوا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر. فإياكم ومحقرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه {الإشفاق}: هو الخوف من أمر يحصل في المستقبل .

والتعبير بالمضارع في {وَيَقُولُونَ} لاستحضار الحالة الفضيعة من شدة الفزع . كما ذكر ابن عاشور عندما تتطاير الكتب ويستلم كل إنسان كتابه إما بيمينه وإما بشماله يصدر منهم حالة من التعجب من دقة المعلومات في هذا الكتاب فيقولون على لسان واحد ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾. {والوَيْلَـه} تأنيث الويل للمبالغة ومعناه سوء الحال والهلاك .

{ لَا يُغَادِرُ} أي: لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا سجّلها.

وذكر صاحب تفسير البحر المحيط وابن عاشور أن: تقديم الخطيئة الصغيرة على الكبيرة في النص من باب الاهتمام بها، ولأنها أهم من حيث يتعلق التعجب من إحصائها. وعطفت عليها الكبيرة – كما يذكر ابن عاشور – لإرادة التعميم في الإحصاء لان التعميم أيضاً مما يثير التعجب فقد عجبوا من إحاطة كاتب الكتاب بجميع الأعمال .. وجملة ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا ﴾ في مواضع الحال من ضمير {وَيَقُولُونَ} – كما ذكر ابن عاشور – أي: إنما قالوا ذلك حين عرضت عليهم أعمالهم كُلاً عند وضع ذلك الكتاب عرضاً سريعاً حصل به علم بما في كتابه على وجه خارق للعادة .

وجملة ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ تذييل وهي عطف على جملة {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً} لما أفهمته الصلة من أنهم لم يجدوا غير ما عملوا . أي: لم يكتب عليهم شيء لم يعملوه .. لأن الله سبحانه لا يظلم أحداً. ولا يعذب أحداً بغير جرم اقترفه .. فهو سبحانه لا ينقص طائعاً من ثوابه ولا يزيد عاصياً في عقابه ..

فلنشمرّ لهذا الموقف كي نكون من أصحاب اليمين – بإذن الله .

تعقيب

د.سالم مجيد الشماع

تعقيب على موضوع كتاب الأعمال للسيدة الجليلة العالمة سكينة عبد الملك الصميدعي حول الآية ٤٩ من سورة الكهف:

"ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه و يقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا و لا يظلم ربك أحدا"

المنشور في عدد مجلة نصف القمر لشهر شعبان.

كل المفسرون قديما و حديثا متفقين على محاسبة الإنسان في دار الآخرة بموجب كتاب سجلت فيه أعماله بدقة متناهية وأعتقد أن ذلك يستند على علم يقتضي بمعرفته زيادة في الأيمان.

فالله يتولى الأنفس و يحاسبها على ما فعل الإنسان في الدنيا،والعقل -كناية عن النفس- هو الذي يأمر الجسد بأن يقوم بأي فعل أو قول وهو أي العقل موجود وثابت في الخلايا العصبية لدى الإنسان ... و عند الموت ينسل الله العقل (النفس) من الجسد و يحفظه (كما يحفظ الإنسان حاليا المعلومات التي يود حفظها في الكومبيوتر -وهذا تشبيه ليس إلا) ... ولأننا لا نعلم ما تلك الكيفية التي لدى الخالق عز وجل ... ولكن على قدر ما توصل إليه الإنسان حتى هذه اللحظة هو الكومبيوتر ... والذي لم يكن مدركا من قبل المفسرين السابقين ... ولا من أناسهم ... فلهم الحق بالاستغراب عن كيفية معرفة دقة المعلومات و تفاصيلها عن أي إنسان و هي محفوظة في عقل البشر بنفس الدقة.